

عصمة الأنبياء في القرآن الكريم

(274) وعلى هذا الأساس فالآية تهدف إلى بيان النعم التي أنعمها سبحانه على حبيبه منذ صباه فأواه بعد ما صار يتيمًا لا مأوى له ولا ملجأ، وأفاض عليه الهداية بعدما كان فاقداً لها حسب ذاتها، وأمّا تحديد زمن هذه الإفاضة فيعود إلى أوليات حياته وأيّام صباه بقرينة ذكره بعد الإيواء الذي تحقّق بعد اليتيم، وتمّ بجدّه عبد المطلب فوقع في كفالته إلى ثمانى سنين ويؤيد ذلك قول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): "ولقد قرن الله به (صلى الله عليه وآله وسلم) من لدن أن كان فطيمًا أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره". (1) والحاصل: إنّ الهداية في الآية نفس الهداية الواردة في قوله: (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)، وفي قوله: (الذي خلقني فهو يهدين) إلى غير ذلك من الآيات التي أوعزنا إليها، والاعتقاد بكونه ضالاً أي فاقداً لها في مقام الذات ثم أُفيضت عليه الهداية، هو مقتضى التوحيد الإفعالي ولازم كون النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ممكناً بالذات، فاقداً في ذاته كل كمال وجمال، مفاضاً عليه كل جميل من جانبه سبحانه، وأين هو من الضلالة المساوقة للكفر والشرك أو الفسق والعصيان؟! وإن شئت قلت: إنّ الضلالة في الآية ترادف الخسران الوارد في قوله سبحانه: (إنّ الإنسان لفي خسر) والهداية فيها ترادف الإيمان والعمل الصالح الواردين بعده (إلّاّ الذّٰرِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (2) فالإنسان بما أنّه يصرف رأس ماله، أعني: عمره الغالي كل يوم، خاسر بالذات، إلّاّ إذا اكتسب به ما يبقى ولا ينفد أثره وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح، والنبي وغيره في هذه الأحكام سواسية بل في كل التوصيفات الواردة في مجال الإنسان التي يثبتها _____ 1. نهج البلاغة: الخطبة 178، والتي تسمّى بالقاصعة. 2. العصر: 2 - 3.